الوسطية في النقد العربي القديم
حتى نهاية القرن الخامس الهجري نحو تأصيل المصطلح النقدي

أ.م.د. رميض مطر حمد
جامعة الانبار / كلية الآداب

ملخص البحث

يعدّ هذا البحث محاولة متواضعة لتأسيس مصطلح الوسطية في النقد العربي ، ليضاف إلى سلسلة المصطلحات النقدية التي ضمّها الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب بين دفتي كتابه "معجم النقد العربي القديم "؛ إذ إنني لم أجد الأستاذ الفاضل يفرد صفحة لهذا المصطلح ، بل اكتفى بذكر ((الوساطة)) بوصفها مصطلحاً نقدياً ،و هذا لا يعني أن النَّقاد لم يعرجوا على هذا المفهوم ، فقد تداولوه في أثناء التوفيق بين الآراء المتناحرة والتخفيف من الغلواء والمبالغة، أو من حدّة الصراع الذي دار بين النَّقاد حول قضايا اللفظ والمعنى ، والقديم والحديث، والجدل الفكري بين الإسلام والشعر.

Abstract

This search is a simple attempt to establish the concept of the middle stance in Arabic criticism in order to be added to the critical terms listed in Dr. Ahmed Matloub's only " Reconciliation " as a critical term. This does not mean that Arab critics were not familiar with this concept.They use it in reconciliating opposing views and to reduce extremity and exaggeration of the critical controversy on the issue of utterance and meaning , classical and modern , and the argument between Islam and poetry.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله حقّ حمده ، والصلاة والسلام على نبينا الهادي محمد المصطفى ، وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنّ الكتابة في النقد العربي القديم لم تكن هيّنة سهلة؛ لأنّ السبيل إلى هذا الدرس محفوف بالتبعية والتقليد وتكرار ما قاله الباحثون قديماً وحديثاًو لاسيَما رأنّ المدّة الزمنية التيوقفتُ عندها تمثّل ذروة النضج والاكتمال النقدي، إذ ظهرت فيها أكبر القضايا النقدية التي عنى النقاد بدراستها عن طريق التنظير تارة والتطبيق تارة أخرى، من مثل الصراع بين القديم والمحدَث، واللفظ والمعنى، والسرقات الشعرية، والخصومة حول المتنبي... إلخ .

في ضوء ما تقدّم حاولت وسط هذه المعمعة النقدية أنْ استلّ مفهوم "الوسطية" الذي انبجس من بين الصراع النقدي حول هذه القضايا – المذكورة آنفاً – وهي محاولة متواضعة للتأسيس لهذا المصطلح ، ليضاف إلى سلسلة المصطلحات النقدية التي ضمّها الأستاذ الدكتور أحمد مطلوب بين دفّتي كتابه (معجم النقد العربي القديم) إذ إنّني لم أجد الأستاذ الفاضل يفرد صفحة لهذا المصطلح، بل اكتفى بذكر "الوساطة" بوصفها مصطلحاً نقدياً، فكان ذلك حافزاً للكتابة في هذا المفهوم.

قسّمت البحث على محورين، تناولت في المحور الأول الوسطية والالتزام، عرضت في هذا المحور التناقض الفكري الذي دار حول مسألة الإسلام والشعر، فقد ظهرت أصوات ترفض الشعر جملة وتفصيلاً، إذ اكتفت بالأبيات التي يلهج قائلها بذكر الله تعالى، وأخرى فتحت الباب أمام الشعراء ووضعت قواعد وأصولاً للشاعر ينبغي السير على منوالها، وطائفة أخرى حاولت التوفيق بين تلك الآراء المتضاربة وهي موضوع البحث.

أمّا المحور الثاني فقد خُصّص لدراسة الوسطية والصراع النقدي، كشفت فيه أطراف الصراع النقدي من دون الغوص في التفاصيل؛ لأنّ ذلك أُشبع بحثاً ودراسة، إنّما سلّطت الضوء على الأفكار التي تدعو إلى الوسطية بين هذه الآراء المتناحرة ،آمل أنْ ينال قبول القارئ.

إنّه نعم المولى ونعم النصير.

التمهيد

ممّا لاشكّ فيه أنّ مفهوم "الوسطية" غير خافٍ على دارسي النقد العربي قديماً وحديثاً، إلا أنّهم لم يقفوا عند هذا المفهوم بوصفه مصطلحاً نقدياً ومحاولة التأسيس له أسوة بالمصطلحات النقدية الأخرى كالوساطة، واللفظ والمعنى، والسرقة، والطبع والصنعة، والقديم والمحدَث، والفحولة ...إلخ. و هذا لا يعني أنَّ النقاد لم يعرّجوا على هذا المفهوم، فقد تداولوه في أثناء التوفيق بين الآراء المتناحرة والتخفيف من الغلواء والمبالغة، أو من حدّة الصراع الذي دار بين النقاد حول قضايا اللفظ والمعنى، والقديم والمحدث، والجدل الفكري بين الإسلام والشعر. إذ تجسد مفهوم "الوسطية" في القران الكريم، متمثلاً بالاعتدال وعدم الإفراط، سواء أكان ذلك بالأمور الدينية أم الدنيوية. من ذلك قوله تعالى: {وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا}[الإسراء:٢٩]. ففي هذه الآية دعوة صريحة إلى الوسطية في المنع والعطاء. بمعنى أنْ لا يكون العبد مَنُوعاً، ومثّل لذلك بحبس يده عن الإنفاق، وكأنّها شُدّت إلى عنقه، ولا مسرفاً لا يبقي في يده شيئاً، بل الاعتدال في ذلك . ونظير ذلك قوله تعالى {وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}[الفرقان:٦٧]. فقوله تعالى: {وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا}، أي (وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتبذير).(١) وقوله تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}[القصص:٧٧].تشير هذه الآية الكريمة إلى "الوسطية" في الدين الاسلامي، ففي قوله تعالى: {وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}، دعوة إلى التمتع بما أعطاه الله للعبدمن مالٍ و أكل وشرب وملبس ومسكن، شريطة أن يكون هذا التمتع بما يرضي الله ؛ وذلك بإعطاء الزكاة والتصدق على الفقراء والمساكين، والإنفاق في الطاعات ؛ لأنَّ الله _عزّ وجلّ _ وضع شروطاً لذلك في قوله: {وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ}.كذلك قوله تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ}[الأعراف:٣١]، فالوسطية في هذه الآية الكريمة واضحة في عدم تحريم الزينة، ما لم تكن مشوبة بالمبالغة، فهناك خطاب رباني موجه للرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) في قوله تعالى: {قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}[الأعراف:٣٢]. وفي الحديث النبوي الشريف، قال الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم): (إياكم والغلو في الدين، فإنّه أهلَكَ من كان قبلكم) (٢).إذ قصد بذلك النصارى الذين جعلوا المسيح (عليه السلام) إلهاً من دون الله. ووجدنا ابن كثير (٧٧٤هـ) يفسر قوله

قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ}[المائدة:٧٧]، قائلاً : (أي لا تجاوزوا في اتّباع الحق، ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه، فتبالغوا فيه، حتى تخرجوه من حيز النبوة إلى مقام الالهية).[٣]

"الوسطية " –إذن– تعني الاعتدال في الشيء، وعدم الافراط وتجاوز الحد عن طريق المبالغة بمدح الشيء أو ذمّه. إذ إنّ المتأمل في معجم لسان العرب، يجد "الوسطية" بمعنى (الوسط)،أي الخيار والعدل، يقال : هو وسط في قومه وسطة ووسيط فيهم.[٤] ، وآية ذلك قوله تعالى{كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا}[البقرة:١٤٣]، أي عدولاً أو خياراً. قال الشيخ محمد رشيد رضا (رحمه الله) : (إنّ الوسط : هو العدل والخيار،وذلك أنّ الزيادة على المطلوب في الامر إفراط، والنقص عنه تفريط، وكلٌّ من الافراط والتفريط ميل عن الجادة، فهوشرٌّ ومذموم، فالخيار هو الوسط بين طرفي الأمر، أي المتوسط بينهم).[٥]

قال أبو نخيلة :[٦]

هـم وسـط يرضـى الالـه بحكمهـم إذا طرقـــت إحـــدى الليـــالي[٧]

في ضوء ما تقدم، يمكننا القول: إن "الوسطية" هي الاعتدال وعدم المغالاة؛ لذلك خصّصت هذا البحث ببيان هذا المفهوم في النقد العربي، حتى نهاية القرن الخامس الهجري، علّهُ يسهم في إضافة شيء جديد إلى تراثنا النقدي.

ولكن لرب سائل يسأل ، ألم تكن الوسطية هي الوساطة أو الموضوعية أو الحيادية في النقد؟

أقول:إنّ الوسطية تختلف تماماً عن المصطلحات المذكورة؛ لأنّ الوساطة هي «أنْ يدخل الناقد بين أطراف متنازعة ليحكم لواحد أو لجماعة منها»[٨] بمعنى آخر أنّها التوسط بين خصمين أو أكثر، كما فعل عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٦٦هـ) في كتابه "الوساطة بين المتنبي وخصومه" عندما عرض حجج خصوم المتنبي وما قيل في المتنبي من عيوب وسرقات، إلاّ أنّه «قاس المتنبي على ما كان في تاريخ الشعر والشعراء، وكانت "المقايسة" أكثر نجاحاً من الموازنة التي اتخذها الآمدي منهجاً له في الحكم على البحتري وأبي تمام».[٩]

أمّا الموضوعية والحيادية فهما يؤديان معنًى واحداً في عدم الخضوع للأحكام المسبقة أو الميل إلى مذهبٍ ما أو شاعرٍ ما أو معنًى معين،أو الوقوع تحت تأثير السلطة والجاه، بل الحكم بتجرّد ، بيد أنَّ الوسطية تتجسد بالتوفيق بين الآراء وعدم إنكار فضل أحد الطرفين ،والانتصار لطرفٍ ما على حساب الآخر.

ظهرت "الوسطية" في النقد العربي القديم في خضم الصراع حول قضيتي اللفظ

والمعنى، والقديم والمحدث. فبرزت أصوات انتصرت للقديم على حساب المحدث،و لاسيما عند اللغويين الذين تمسّكوا باللغة ، وحرصوا على سلامتها وعدم التلاعب بمفرداتها وصياغاتها منهم المفضل الضبّي (ت ١٧٨هـ)[١٠]، وخلف الأحمر (ت ١٨٠هـ)[١١]، وأبو عبيدة (ت ٢١٠هـ)[١٢]، وابن الأعرابي (ت ٢٣١هـ)[١٣]، وإسحاق الموصلي (ت ٢٣٥هـ)،[١٤] وأبو حاتم السجستاني (ت ٢٥٠هـ)،[١٥] وأبو علي البصير(٢٥٥ هـ).[١٦]

وبرزت طائفة من الكتاب ممّن ألّفوا كتباً في أشعار المحدثين وأخبارهم، وهذا يعد انتصاراً لهم كما فعل المبرد (ت ٢٨٦هـ) في كتابه (الروضة)،[١٧] وابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) في كتابه (طبقات الشعراء) ، وأبو عبد الله هارون بن علي الذي ألّف "البارع" ، وأبو هفان في كتابه (أخبار أبي نواس)، والصولي (ت ٣٣٥هـ) في كتابه (أخبار أبي تمام).

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ "الوسطية" قد برزت أيضاً وسط الحراك النقدي حول مسألة البديع وإفراط طائفة من الشعراء في استعماله من مثل مسلم بن الوليد (ت ٢٠٨هـ)، وبشّار بن برد (ت ١٦٧هـ) وأبي نواس (ت ١٩٩هـ)، وأبي تمّام (ت ٢٢٩هـ)، وهناك مَن سار على نهج القصيدة الجاهلية كالبحتري (ت ٢٨٤هـ)، ممّا حث النقّاد على وضع بنود "عمود الشعر" حرصاً منهم على المحدثين بضرورة عدم الإفراط والمبالغة في إيراد البديع في قصائدهم. الأمر الذي دفع الآمدي (ت ٣٧٠هـ)، إلى تأليف كتاب "الموازنة بين أبي تمّام والبحتري" ؛ ليخفف من غلواء الهجمة على أبي تمام واتخاذ الموازنة بين الطائيين سبيلاً إلى "الوسطية"إلا أنّه ما لبث أن انتصر للمطبوع من دون أنْ يشعر. كذلك ظهرت "الوسطية" وسط الاحتدام النقدي حول المتنبي (ت ٣٥٤هـ) فبرزت أصوات حاولت إخراج المتنبي من دائرة الإبداع الشعري بعد أنْ سطع نجمه وذاع صيته في الآفاق، من هؤلاء الصاحب بن عبّاد (ت٣٨٥هـ) في كتابه (الكشف عن مساوئ المتنبي)، والحاتمي (ت ٣٨٨هـ) صاحب (الرسالة الموضحة) و(الرسالة الحاتمية) ، وابن وكيع التنيسي (ت٣٩٣ هـ)، صاحب (المنصف في سرقات المتنبي) فقيل إنّه سمّي (المنصف) كما «سمّى اللديغ سليماً»[١٨] ، والعميدي (ت ٤٣٣هـ) الذي ألّف (الإبانة عن سرقات المتنبي) .

أمّا أنصار المتنبي فمنهم ابن جنّي (ت ٣٩٢هـ) الذي ألّف (الفسر) و(الفتح الوهبي على مشكلات المتنبي) ،وابن فورّجة (ت ٤٠٠هـ) صاحب كتاب (الفتح على أبي الفتح) ، وأبو القاسم إبراهيم بن محمد الإفليلي (ت ٤٤١هـ)الذي ألّف كتاباً في شرح معاني المتنبي،[١٩] ومحمد بن أحمد المغربي في (الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي)[٢٠]، وأبو القاسم الأصفهاني صاحب (الواضح في مشكلات شعر المتنبي).[٢١]

أمّا الوسطية فقد ظهرت في كتاب (الوساطة بين المتنبي وخصومه) ، ولكنه في نهاية المطاف انتصر للمتنبي؛ وذلك للقيمة الفنيّة التي انطوى عليها شعره، وكذلك تجسّدت عند الثعالبي في كتابه (يتيمة الدهر) الذي أفرد صفحات غير قليلة لشعر المتنبي.(٢٢)

في ضوء ما تقدّم سأبيّن مفهوم (الوسطية) في النقد العربي القديم على وفق محورين محددين برزا كثيراً في نقدنا العربي:

أولاً: الوسطية والالتزام

يعد الالتزام مبدأً أساسياً في تقييم الشعر العربي ، إذ وقف الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) والخلفاء الراشدون موقفاً صارماً من الشعر الذي يخدش الحياأو يمسّ العقيدة الإسلامية، أو يعلن أسرار الناس ويتعدى على حرماتهم، وكلّنا يعرف وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) لامرئ القيس بأنّه: **(صاحب لواء الشعراء إلى النار)**(٢٣) أو أنّه: **(أشعر الشعراء وقائدهم إلى النار)**(٢٤) وفي رواية أخرى **(رَجُلٌ مَذْكُورٌ فِي الدُّنْيَا، شَرِيفٌ فِيهَا، مَنْسِيٌّ فِي الآخِرَةِ، خَامِلٌ فِيهَا، يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَهُ لِوَاءُ الشُّعَرَاءِ إِلَى النَّارِ)**.(٢٥)

فالمتأمل في القولين الثاني والثالث يجد أنّهما – على الرغم من ورودهما في كتب الأدب – لا يختلفان عن القول الأول في دلالته ومغزاه، واللافت للنظر أنّ الرسول (صلى الله عليه وسلم) ينكر شعر امرئ القيس مع علمنا أنّه صاحب لسان فصيح وبلاغة متناهية، وقد تجسّد ذلك في أحاديث النبي محمد(صلى الله عليه وسلم) التي أنارت السبيل أمام البشرية، يضاف إلى ذلك أنّه القائل: **(إنّ من البيان لسحراً وإنّ من الشعر لحكمة)**.(٢٦)

نفهم من قوله (صلى الله عليه وسلم) أنّه لم يمنع الشعراء من قول الشعر ولم ينكر كلاماً جزلاً فصيحاً من أنْ يذاع بين الناس، إنّما وقف هذا الموقف من امرئ القيس ؛لما في معلقته من صور خليعة تمسّ الحياء، وتسيء إلى القيم الإسلامية الرفيعة التي تربّى عليها المسلمون في كل مكان، إذن يمكننا القول إنّ: "الوسطية" في أحكام الرسول (صلى الله عليه وسلم) تتمثل في عدم إنكاره الشعر وعدم قبوله الشعر الماجن، إنّما وقف موقفاً وسطاً بين الكلام الجزل الجميل والقول الفاحش فهو القائل: **(الشعر كلام من كلام العرب جزل تتكلم به في بواديها وتسل به الضغائن من بينها)**.(٢٧)

فإمّا أنْ يكون الشاعر رسول خير ومحبّة يوظّف شعره للإصلاح وحقن الدماء ونزع الأحقاد من صدور الرجال وزرع المحبّة بينهم، أو أنْ يكون نذير شؤم وحقد وداعياً إلى الكراهية والأحقاد، أو ينطوي شعره على القبح والهجاء اللاذع أو الساخر من الناس، والدعوة

إلى الرذيلة وإشعال فتيل العصبية والنزاع القبلي؛ لذا حدّدَ الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) موقفه الوسطي من الشعر بشكل واضح وجلي.

ويطالعنا الخليفة الراشدي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) (ت ٢٣هـ) عندما وقف موقفاً صارماً من الحطيئة في هجائه للزبرقان بن بدر، [٢٨] إلا أنّنا وجدنا منهجاً وسطاً في أحكامه النقدية التي بثّها عندما تقدّم بنو العجلان بشكواهم إليه؛ بسبب هجاء النجاشي [٢٩] لهم في قوله:

إِذَا اللهُ عـادَى أَهْـلَ لُـؤْمٍ ورِقْـةٍ عادَى بَنِي العَجْلانِ رَهْطَ ابنِ مُقْلِ

سكت الخليفة ولم يجد جواباً، فقالوا: ولكنه قال:

لَقبيـةٌ لا يَغْـــدِرُون بِذِمَّـــةٍ ولا يَظْلِمُـونَ النـاسَ حَبَّـةَ خَـرْدَلِ

فقال الخليفة عمر (رضي الله عنه): «ليت آل الخطاب هكذا».[٣٠] هنا اتخذ الخليفة مبدأ الوسطية في استجابته لهذا البيت، بأنّهم لا يظلمون الناس مهما كان حجم الظلم الذي يقع عليهم؛ لأنّهم يخافون الله ويخشونه، لذا اختار الخليفة هذا الحوار ليكون وسيط خير بين هجاء النجاشي الواضحوبين بني العجلان الذين وصمهم الشاعر بالضعف، إلاّ أنّهم لم يقتنعوا بما أورده الخليفة، فأحالوه على بيت آخر:

ولا يَـــرِدُونَ المـــاءَ إلاّ عَشِـــيَّةً صَـدَرَ الـوُرّادُ عـن كُـلِّ مَنْهَـلِ

أراد الشاعر القول بأنّهم قوم ضعاف لا يستطيعون مزاحمة الناس أو مواكبتهم في أثناء ورد إبلهم ومواشيهم، إنّما ينتظرون حتى يفرغ الناس من ذلك مشبّهاً إياهم بابنتي شعيب (عليه السلام) عندما قالتا لموسى (عليه السلام): {لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء}[القصص:٢٣]، إذ لا تستطيعان مزاحمة الناس، فضلاً عن أنّ البيت يحمل معاني عدّة أبرزها أنّهم لم يكونوا أسياداً؛ لأنّ الورد الأول يكون لسادة القوم، والورد الأخير لعامة الناس؛ لأنّ الماء سيكون عكراً. إلا أنّ الخليفة اتخذّ الوسطية، بغية درء الفتنة ودفع التهمة عن بني العجلان، فقال: «ذلك أقلّ للّكاك»[٣١]، فقالوا لكنه قال:

تَعَـــافُ الكِـــلاَبُ الضَـــارِيَاتُ لُ مِـنْ كَعْـبٍ وعَـوْفٍ ونَهْشَـلِ

فمتأمل هذا البيت يجد الهجاء واضحاً جلياً، فقد جعل لحومهم عفنة نتنة تعافها حتّى الكلاب الضارية، ليؤكد المعنى؛ لأنّها لا تترك لحماً مهما كان طعمه أو لونه إلا وأتت عليه، ففي هذا البيت كناية عن نسبه، إذ إنّ النجاشي لم ينسب العفونة والكراهية إلى بني العجلان مباشرة، بل جعلها في لحومهم. ومع ذلك نجد الوسطية تتجسد في ردّ الخليفة (رضي الله عنه) محاولاً التخفيف من حدّة الهجاء بقوله: «أجن القوم موتاهم فلم

يضيعوهم»[٣٢] انطلاقاً من مبدأ إسلامي **(إكرام الميت دفنه)**[٣٣] سواء أكان الموت في البيت أم في سوح الوغى، إلا أن الهجاء لم يخف عليهم، فقالوا: لقد قال:

وما سُمِّيَ العَجْلانَ إلا لِقيلِهِم ... خُذِ القَعْبَ واحلُبْ أيُّها العَبْدُ واعْجَلِ

فالملاحظ أنّ "الوسطية" قد تجسدت في ردّ الخليفة عمر (رضي الله عنه) عندما قال: «خير القوم خادمهم وكلنا عبيد الله»، فالخليفة على الرغم من صرامته وشدّته في الحالات التي تتطلب القوة والحزم وعدم تسامحه في أي نوع من الهجاء، إلا أنّه في هذا الموقف كان وسطياً أو وسيطاً بين الخير والشر، بدليل أنّه أرسل بطلب حسّان بن ثابت (رضي الله عنه) فأقرّ بكونه هجاءً، فهدده الخليفة وهو عالم بذلك قائلاً له: «إنْ عدت لذلك قطعت لسانك».[٣٤]

وتتجلى "الوسطية" أيضاً في قول الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما سأله الجند في أثناء مسامرته في إحدى ليالي رمضان في تقديم أشهر شعراء العرب قائلاً: «كل شعرائكم محسن، ولو جمعهم زمان واحد وغاية واحدة ومذهب واحد في القول لعلمنا أيهم أسبق إلى ذلك وكلهم قد أصاب الذي أراد وأحسن فيه وإنْ يكن أحد فضلهم فالذي لم يقل رغبة ولا رهبة امرؤ القيس بن حجر، فإنه كان أصحهم بادرة وأجودهم نادرة»[٣٥] فعبارة الإمام علي (رضي الله عنه) (كل شعرائكم محسن) تمثل قمّة الاعتدال والوسطية؛ انطلاقاً من فكر القائد الذي يسعى إلى لمّ الشمل وعدم إثارة النعرات الطائفية بين الجند، وجعل الهوة واسعة بينهم، فهي تحمل في طياتها دعوة إلى التريث وعدم الإسراع في إطلاق الأحكام النقدية.

كذلك تتمثل "الوسطية" في عدم النظر إلى مكانة الشاعر الاجتماعية والسياسية، فضلاً عن جنسه و دينه الذي ينتمي إليه، سواء أكان وثنياً أم إسلامياً، يقول الدكتور داود سلوم: «وأهمية قوله (كل شعرائكم محسن) أنّه كسر طوق العصبية الفكرية والعصبية الجنسية والعصبية القبلية، وهذه كلها عصبيات غير مرغوبة في الإسلام»[٣٦] ثم استدرك قائلاً: «أضف إلى ذلك أنّه جعل شعر المرأة كشعر الرجل؛ لأنّ مكانة المرأة الحقوقية في الإسلام كانت قد فرضت نفسها على العقلية البدوية»[٣٧].

والمتأمل في أراء الأصمعي (ت ٢١٦ هـ) النقدية يجد الوسطية ماثلة فيها و لا سيما في الحدود الفاصلة بين الدين والشعر ، اذ انطلق متأثراًبر أي أستاذه أبي عمرو بن العلاء (ت ١٥٤ هـ) قائلا : " سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : ما أحد أحب إلي شعراً من لبيد بن ربيعة، لذكره الله عز وجل، ولإسلامه ، ولذكره الدين والخير، ولكن شعره رحى بزر.[٣٨] بمعنى أن شعره من ناحية الالتزام الديني حسن، أمّا ما يتصل بالإبداع الفني فهو شعر ذو

جلبة وطنين. نفهم من قوله إن الدين بمعزل عن الشعر ، فكل له خصوصيته ، هذا القول أثار الدكتور أحمد أحمد بدوي (رحمه الله) مشيراً الى أن هؤلاء النقاد لم يكونوا من نقدة الأدب الخلّص الذين يزنون الشعر بميزان الفن الخالص ،وإنما هم طائفة من الحكام ورجال الاخلاق الذين يعنيهم حفظ كيان الامة ".(٣٩)

فالملاحظ أنّ تأثّر الأصمعي بأستاذه دفعه الى وضع حد فاصل بين الدين والشعر، إذ يراهما " عالمين منفصلين لا يتصل أحدهما بالآخر ، وفي اتصالهما حيف على الشعر نفسه لذلك فهو يستند الى ر أي أستاذه ".(٤٠) بمعنى أن الكفر لا يزيد أو ينقص من جودة الشعر، وكذلك الايمان، لذلك تجده يسمُ شعر حسان باللين عندما دخل الاسلام، قائلا : " طريق الشعر إذا أدْخلْتَه في باب الخير لانَ ، ألا ترى أنّ حسان بن ثابت كان فحلاً في الجاهلية والاسلام ، فلما دخل شعره باب الخير من مراثي النبي (صلى الله عليه وسلم) وحمزة وجعفر (رضي الله عنهم) وغيرهم – لان شعره. وطريق الشعر هو طريق شعر الفحول مثل امري القيس وزهير والنابغة من صفات الديار والرحل والهجاء والمديح والتشبيب بالنساء وصفة الخمر والخيل والحروب والافتخار ، فإذا أدخلته في باب الخير لان ".(٤١)

فالمتأمل في هذا النص يجد الأصمعي على الرغم من تدينه وورعه ، يضع الجانب الفني معياراً للإبداع بعيداً عن المغالاةو المحاباة ، فهو يقابل بين (اللين) و (الفحول) ، إذ إنّ أبواب الخير التي ذكرها الأصمعي تدفع الشاعر الى التخلي عن كثير من الامور التي تجعل النتاج الابداعي فقيراً ، هذا يعني أن الشعر بمنأى عن القيود التي تكبّله، فاذا ما وضع الشعر في قوالب محددة نضب معينه وانحط مستواه الفني، في ضوء ما تقدم يمكننا القول: إنّ الوسطية في أحكام الأصمعي النقدية تتمثل في عدم انحيازه الى شعر حسان الديني وانكار شعره في الجاهلية ، إنّما وضع في حسبانه أنّ الاغراض الشعرية متفاوتة، منها ما يتطلب من الشاعر خيالاً رحباً وجزالة لفظية ، ومنها ما تطلّب العذوبة والرقة، فالنمط الاول هو طريق الفحول ، كذلك تتمثل الوسطية أيضاً من عدم إنكاره الأغراض الشعرية من هجاء أو وصف للخمر ، فالإبداع الشعري بمعزل عن الديانة.

وقد حاول بعض النقاد أنْ يتخذ من الوازع الديني معياراً لاستهجان شعر الشاعر، من ذلك استهجان الآمدي قول أبي تمّام:

وَ مٍ كَطُولِ الدَّهْرِ في عَرْضٍ ووجدي مِنْ هذا وهذاكَ أطولُ

وقوله:

تحمَّلْتَ ما لوْ حمِّلَ الدهرُ لفكَّرَ دهراً أيُّ عبأيهِ أثقلُ(٤٢)

هذا الأمر دفع الصولي إلى أنْ يتخذُ من الوسطية منهجاً للردّ على مَن ادّعى على أبي

تمّام بالكفر إذ قال:«وما ظننت أنّكفراً ينقص من شعرٍ ، ولا أنّ إيماناً يزيد فيه ..ما ضرّ هؤلاء الأربعة الذين أجمع العلماء على أنّهم أشْوَهُ الناس: امرأ القيس والنابغة الذبياني وزهيراً والأعشى، كفرهم في شعرهم، وإنما ضرهم في أنفسهم. ولا رأينا جريراً والفرزدق يتقدمان الأخطل عند من يقدمهما عليه بإيمانهما وكفره، وإنما تقدمهما بالشعر. وقد قدم الأخطل عليهما خلق من العلماء، وهؤلاء الثلاثة طبقة واحدة، وللناس في تقديمهم آراء»(٤٣).

هنا يدعو الصولي إلى عزل الدين عن الشعر، وهذا لا يعني أنّه قد فسح المجال أمام الشعراء في النيل من القيم النبيلة التي حثّ عليها الإسلام، إنّما شغله الشاغل العمل الإبداعي وما يكتنزه من قيمة فنيّة، ويعقب الدكتور إحسان عباس قائلاً: «إنّي لأحس أنّ وراء بعض أحكام الآمدي أثراً دينياً، فأكثر استعارات أبي تمام التي يراها الآمدي غثّة، إنّما تتعلق بالدهر أو الزمان، وربما ارتبط هذا شعورياً أو لا شعورياً بما يروى في الأثر: (لا تسبّوا الدهر)».(٤٤)

أمّا القاضي الجرجاني فقد حاول في وساطته أنْ يتخذ الوسطية سبيلاً لدفع تهمة ضعف العقيدة عند المتنبي قائلاً: «فلو كانت الديانة عاراً على الشعر، وكان سوء الاعتقاد سبباً لتأخر الشاعر، لوجب أن يُمحى اسمُ أبي نواس من الدواوين، ويحذف ذكره إذا عُدّت الطبقات، ولَكان أولاهم بذلك أهل الجاهلية، ومن تشهد الأمة عليه بالكفر، ولوجب أن يكون كعب بن زهير وابن للرِّبَعرى وأضرابُهما من تناول رسولَ الله (صلى الله عليه وسلم) وعاب من أصحابه بُكْماً خرساً، وبِكاء مفحمين؛ ولكنّ الأمرين متباينان، والدين بمعزل عن الشعر».(٤٥)

وقد أبان الدكتور محمود السمرة استغرابه من محاولة القاضي الجرجاني فصل الدين عن الشعر، وهو يشغل منصب قاضي القضاة، إلا أنّه يعزو ذلك إلى كون الأدب مرآة للمجتمع سياسياً واقتصادياً واجتماعياً؛ لذا لا بدّ أنْ يتماشى مع ذلك كلّه.(٤٦)

هذا الأمر دفع الدكتور عز الدين إسماعيل إلى القول إنَّ «عزل الدين عن الشعر، ووقوفه خارجه، منع النقاد من أي حكم نقدي يرفع شعراً لما فيه من نزعة دينية، أو يخفضه لوقوفه موقفاً يبدو مضاداً له».(٤٧)

أمّا الثعالبي (ت٤٢٩هـ) فقد حاول أنْ يضيف شيئاً جديداً إلى ما قاله القاضي الجرجاني في قوله: «لكن للإسلام حقه من الإجلال الذي لا يسوغ الإخلال به قولاً وفعلاً ونظماً ونثراً، ومن استهان بأمره، ولم يضع ذكره وذكر ما يتعلق به في موضع استحقاقه، فقد باء بغضب من الله تعالى».(٤٨)

نفهم من قول الثعالبي أنّه يؤمن إيماناً قاطعاًبأنّ الدين لا يمكن أنْ يستهان به، فعلى

الشاعر أن لا يجد لنفسه مسوغات للتجاوز على حدود الشريعة السمحاء، إلا أنّ الثعالبي وجد في المجتمع الذي عاش أطواره وألِف ناسه يتقبلون «ألواناً من الأدب فيها خروج على الدين بمظاهر شتّى كشعر الخمر والغزل الفاحش والمجون وما إلى ذلك لم يتحرج من الاستشهاد من تراجم شعراء اليتيمة بنصوص من هذا اللون ما دام الملوك والأمراء والخاصة والعامة معجبين به مقبلين عليه».(٤٩)

لذلك يرى الجادر (رحمه الله) الثعالبي كان وسطياً في عرضه لأشعار مَن ترجم لهم في يتيمته؛ لأنّه وجد الناس في عصره يقبلون على هذا الشعر ويستحسنونه طلباً للمزحة والتفكه والمسامرة، إذ إنّ المتأمل في شعراء اليتيمة يجد الثعالبي يعرض شعراً للملوك والأمراء وأفاضل القوم ولشعراء انماز شعرهم بالعفة والرصانة، فضلاً عن شعراء عرفوا بالتهتك والخلاعة كابن سكرة،(٥٠) والواساني،(٥١) وابن الحجاج،(٥٢) إذ تحدّث الثعالبي في مقدمة ترجمته لابن الحجاج مفصحاً عن انتهاج "الوسطية" في عرض شعر شعراء اليتيمة رغبة منه في استمالة عواطف القراء، والدعوة إلى بثّ روح الدعابة في نفوسهم، فضلاً عن التقرب من الملوك والأمراء وجعل يتيمته أنيساً لكل مستوحش مع علمه أنّ هزل الشعر ليس هزلاً وجدّه ليس جداً، إذ قال: «ولولا أن جدّ الأدب جدّ وهزله هزل، كما قال إبراهيم بن المهدي،لصنْتُ كتابي نه عن كثير من كلام من يمدّ يد المجون فيعرك بها أذن الحُرَم، ويفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل،ولكنه على علاّته تتفكه الفضلاء بثمار شعره، وتستملح الكبراء ببنات طبعه، وتستخف الكبر اء أرواح نظمه، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه، ومنهم من يغلو في الميل إلى ما يضحك، ويمتع من نوادره، ولقد مدح الملوك والأمراء، والوزراء والرؤساء، فلم يخل قصيدة فيها من سفاتج هزله، ونتائج فحشه، وهو عندهم مقبول الجملة غالي مهر الكلام، موفور الحظ من الإكرام والإنعام»(٥٣)

فمن يتأمل قول الثعالبي يجد "الوسطية" واضحة في كلامه، فهي تكمن في عدم تحرجه من عرض الشعر الفاحش الماجن بجانب الشعر الرصين، مع إيمانه المطلق بأنّه لا ضرورة لعرض هذا النمط من الأشعار، إلا أنّه وقع بين سندان الشعر ومطرقة المجتمع الذي مال أبناؤه إلى كل ما يريح بالهم ويفتح لهم أبواب الضحك والمتعة بعيداً عن الالتزامات الاسرية وقيود المجتمع، بناء عليه آثر الثعالبي عرض هذه الأنموذجات الشعرية لتكون متنفساً لخاصة الناس وعامتهم، وفي الوقت نفسه وجدنا الثعالبي ينعى على المتنبي ضعف العقيدة في شعرهمن دون أنْ يعلل أو يجد مسوغاً لذلك، كذلك ساق أبياتاً لشعراء خرجوا في شعرهم عن حدود اللياقة، من ذلك تعليقه على قول عضد الدولة:

عضـــد الدولـــة وابـــن ركنهـــا ملـــك الأمـــلاك غـــلاّ ب القـــدر

قائلاً بأنّه: «البيت الذي لم يفلح بعده أبداً»(٥٤)

نفهم من هذا التعليق أنّ "الوسطية" عند الثعالبي لا تعني التسامح في قبول التجاوز على حقوق الله أو الإشراك به، هذه خطوط حمر حدّدها الثعالبي لا يمكن لأي شاعر أنْ يتجاوزها بقوله، فإنّ «للإسلام حقّه من الإجلال»، فقول عضد الدول بأنّه (ملك الاملاك) و(غلاب القدر) ما دفع الثعالبي إلى أن يحدد موقفه منه، وبالمنظور نفسه يعلّق الثعالبي على قول الخبّاز البلدي:

يا قاسم الرزق لم خانتني ... ما أنت متهم قل لي من أتهمُ؟

إن كان نجمي نحساً أنت ... فأنت في الحالتين الخصمُ

يقول الثعالبي: وهما مما يستغفر منه».(٥٥)

إنّ المتأمل في هذين الشاهدين يجد الثعالبي يقف بالمرصاد لكل شيء فيه تحقير أو استهانة بقيم الإسلام أو بالله سبحانه وتعالى، أمّا عدا ذلك فهو مقبول أو يمكن غضّ الطرف عنه، من هذا المنطلق جوّز الثعالبي بوسطية واضحة عرض شعر الخمرة والمجون إلى جانب شعر المدح والغزل والرثاء. وقد برر الثعالبي ذلك بإقبال الناس سواء أكانوا عامة أم خاصة على هذا النمط من الشعر، وإنّ سبب رواج اليتيمة والإقبال عليها بسبب اكتنازها هذا اللون من النظم، حتّى قيل إنّ ديوان ابن حجاج قد بيع «بخمسين ديناراً إلى سبعين»،(٥٦) فضلاً عن تحقيق رغبة الملوك والأمراء وحاجتهم إلى هذا الشعر في أثناء لهوهم وسمرهم.

هنا يمكننا القول إن الجمال الفنّي الذي ينطوي عليه النص الشعري هو المعيار في إثباته والدفاع عنه مهما كان جنس قائله أو لونه أو مكانته أو دينه ، وآية ذلك ما قاله الأخطل النصراني: «إن العالم بالشعر لا يبالي وحق الصليب إذا مرّ به البيت المعاير السائر الجيد أمسلم قاله أم نصراني».(٥٧) فكان الأخطل لا يأبه لنصرانيته، إذ قال في إحدى قصائده:

وإذا افتَقَرْتَ إلى الذَّخائِرِ ، لمْ ... تَجِدْ ذُخراً يكونُ كصالحِ الأعمالِ

فقال له هشام بن عبد الملك: «هنيئاً لك أبا مالك الإسلام».(٥٨)

إذن "الوسطية" التي تجلّت في رؤى الثعالبي النقدية منطلقة من أمرين:

أحدهما: القيمة الفنية التي ينطوي عليها النص الشعري بغضّ النظر عن نوعه.

والآخر: طبيعة العصر الذي عاشه الناقد التواق إلى كلّ ما ترتاحُ له القلوب، وتجذل به النفوس، وتطرب له الآذان.

يقول الدكتور الجادر :إنّ رأي الثعالبي كان واضحاً «في أنّ الأديب لا يحاسب على دينه على أنْ لا يمس بأقواله العواطف الدينية المتأصلة في نفوس الناس، ولعل ذلك يمثل بذور بعض النظريات النقدية الحديثة التي ترى أنّ الأديب حرّ في وصف الحياة بجميع بواعثها وآثارها».(٥٩)

كذلك وجدنا "الوسطية" في منهج أبي العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ) عندما وجد أنّ اللسان لا يكون مسوّغاً لتديّن الشاعر من عدمه، فيقول: «إنّ نطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان؛ لأنّ العالم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أنْ يظهر الرجل بالقول تديناً، وإنما يجعل ذلك تزيناً».(٦٠)

هنا يدعو المعري النقّاد إلى عدم الحكم على القول، فقد يظهر الشاعر شيئاً ويبطن أمراً آخر، انطلاقاً من قاعدة فقهية تقول بأنّ: «ناقل الكفر ليس بكافر». عليه إنّ القول بالمجون لا يعني ذلك دعوة إلى الكفر والإلحاد في نظره، فليس بالضرورة أنْ يكون الشاعر ملحداً أو مشركاً إنّما قال ذلك تلبية لرغبة الناس أو حاجة العصر، كذلك القائل بالزهد أنْ يكون بالضرورةملتزماً تمام الالتزام، بدليل أنّ أبا نؤاس قال بالخمرة، ثمّ لهج لسانه بشعر ديني عذب ومن ثمّ عاود الكرّة إلى شعر الخمرة ومع ذلك بقي ديوانه الزهدي شامخاً وديوانه الخمري في مكانه.

ثانياً: الوسطية والصراع النقدي

يعدّ الصراع النقدي بين القديم والمحدَث أحد مسببات نشوء "الوسطية" في النقد العربي القديم، لما رآه أصحاب "الوسطية" من تعصب مفرط وميل شديد إلى القديم لكونه قديماً على حساب المحدث لحداثة قائله، بغض النظر عن القيم الجمالية التي يكتنزها النص المحدث، فضلاً عن المعاني المولّدة أو المبتكرة التي أتى بها المحدثون متناسين أنّ لكل عصر خصائصه وسماته ولغته التي تميزه عن غيره من النصوص الشعرية، إلا أنّهم انطلقوا من ضرورة الحفاظ على سلامة اللغة العربية وقداستها، إذ لا ينبغي للشاعر أنْ يتعدى هذه الحدود التي رسمها اللغويون لهم، أو أنْ يتخطى مقررات "عمود الشعر".

ولعل سبب استهجانهم للشعر المحدث ناجم من الإفراط في البديع، فضلاً عن عدم قدرتهم على إيجاد العلاقة الرابطة بين طرفي الصورة التي أنشأها المحدثون؛ لذلك حاولوا إخراجها من دائرة الإبداع، أمّا الشعر الذي تتضح أطراف صورته بصورة تقريرية واضحة فهو في عداد الحسن الجيد، وأمثلة هذا النقد كثيرة، من ذلك ما روي عن ابن الأعرابي أنّه قال: «أيّما أحسن لديكم قول أبي نؤاس: (وداوني بالتي كانت هي الداء) أو الذي أخذه منه،

قول الأعشى:

وكـــأسٍ شـــربنا علـــى لـــذّة وأخـــرى تـــداويت منهـــا بهـــا

فسكتنا، فقال: الأول السابق الأجود».[٦١]

وفي رواية أخرى تبيّن شدّة تعصبه للقديم من أن إسحاق الموصلي أنشده بيتين فقال الأصمعي: «لمَن تنشدني؟ قال: لبعض الأعراب، فقال والله هذا هو الديباج الخسرواني. قال (إسحاق): إنّهما لليلتهما، فردّ عليه الأصمعي بقوله: «لا جرم والله أنّ أثر التكلف فيهما ظاهر».[٦٢]

في ضوء هذا الشاهد وشواهد كثيرة تمخضت "الوسطية" في النقد العربي القديم التي تبناها المتعصبون في بعض الأحيان والمعتدلون الذين حاولوا التوفيق في آرائهم بين القديم والمحدَث.

ومما تجدر الإشارة إليه أنَّ عدداً من الباحثين قد توهموا أنّ ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، هو أول مَن دعا إلى "الوسطية"،[٦٣] والتوفيق بين القديم والمحدث أو عدم ترجيح أحد الطرفين على الآخر. لكننا بعد استقراء آراء الأصمعي (ت ٢١٦هـ)، الذي وصم بالتعصب للقديم وجدنا إشارات تبيّن لنا ميله إلى "الوسطية" في بعض أحكامه، لاسيما عندما وازن بين بشار بن برد ومروان بن أبي حفصة، وهما شاعران مختلفان في المذهب، فالأول حضري يميل إلى التجديد ،ومروان محافظ على القديم، إلا أنّ الأصمعي قدّم بشّاراً على مروان على الرغم من ميله إلى القديم؛ لأنّه قد أعجب بتصويره وصياغاته التي جاءت ملائمة لروح العصر، فقال: « إنّه ما نظر إلى الدنيا قط وكان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر البصراء أن يأتوا بمثله»،[٦٤]

وفي رواية أخرى تتجسد "الوسطية" عند الأصمعي عندما سُئل عن تفضيل أحد الشعراء، فاعتمد الموازنة بين الشعراء الجاهليين والمحدثين، في المعاني وموضوعات الشعر فقال: «تقول الرواة العلماء: من أراد الغريب فعليه بشعر هذيل ورجز رؤبة والعجّاج، ...ومن أراد الغريب من شعر المحدّث ففي أشعار ذي الرّمّة. ومن أراد الغريب الشديد الثّقة ففي شعر ابن مقبل، وابن أحمر، وحميد بن ثورٍ الهلاليّ، والراعي، ومزاحمٍ العقيليّ. ومن أراد النسيب والغزل من شعر العرب الصّلب فعليه بأشعار عذرة والأنصار. ومن أراد النَّسيبَ من الشعر المحدث ففي شعر ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد المخزومي...».[٦٥]

يتضح مما تقدم أنّ الأصمعي لم ينكر الشعر المحدث ولم يفضل القديم عليه فلكل مجاله وخصائصه وتميّزه من غيره. وآية ذلك أنّه قد احتج بشعر ذي الرمّة على الرغم من

موقفه من هذا الشاعر عندما قال فيه: «إنّ ذا الرمّة قد أكل البقل والمملوح في حوانيت البقالين حتّى بشم».(٦٦)

يبدو أنّ اعتراض الأصمعي على المحدثين في كونهم لا يعدّون حجّة في اللغة؛ لأنّه شديد التزمت في ذلك، إلاّ أنّه كان منصفاً في موازينه بين القديم والمحدث، ولا يتحرج في تفضيل المحدث على الجاهلي إذا استجاد الشعر المحدث. أمّا من ناحية الاحتجاج اللغوي فقد أخرج الشعر المحدث من دائرة الاحتجاج بقوله: «ختم الشعراء بابن هرمة والحكم الخضري وابن ميادة وطفيل الكناني ومكين العذري».(٦٧)

وتتمثل "الوسطية" أيضاً في رؤى الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) النقدية، فهو معروف بميله إلى المطبوع من الشعر، إلا أنّنا وجدناه يبدي إعجابه بأبيات لأبي نو اس يقول فيها: «وأبيات أبى نواس على أنّه مولّدٌشاطرٌ أشعر من شعر مهلهل في إطراق الناس في مجلس كليب»،(٦٨) فالجاحظ – هنا – لم يتحرج في تفضيل شاعر محدث كأبي نو اس على شاعر قديم كالمهلهل، آخذاً بالحسبان الجودة معياراً للحكم. هنا تتجسد "الوسطية" في عدم التمييز بين شاعر وآخر سواءً أكان قديماً أم محدثاً، ويقول أيضاً في شعر أبي نؤاس: «وأنت إذ تأملت شعره فضلته، إلا أنْ تعترض عليك منه العصبية، أو ترى أنّ أهل البدو أبداً أشعر، وأنّ المولدين لا يقاربونهم في شيء، فإنْ اعترض هذا الباب عليك فإنّك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوباً».(٦٩)

فالوسطية في هذا النص تتجلى للقارئ بشكل معلن، فهو ينعى على النقاد العصبية والظلم، فمَن يحكم للجيد بالرداءة بسبب عامل الزمن فهو مغلوب على أمره.

هذه الوسطية التي تمثلت في رؤى الجاحظ النقدية نابعة من ذوقه الأدبي الذي يستدعي البحث عن مواطن الجمال في النص الأدبي وإبراز قيمته الفنية مهما كان جنس القائل أو لونه أو عصره، بدليل أنّه فضّل شعر محدث مولد على قديم آخذاً بالحسبان القيمة الفنية التي اكتنزها شعره، فضلاً عن الصور الفنية التي جاءت متناغمة وروح العصر. وقد توهّم نيكلسون عندما قال: «كان ابن قتيبة أول ناقد ذي بال صرّح بضرورة موازنة القدامى والمحدثين حسب مكانتهم بقطع النظر عن عصرهم»(٧٠).

يتضح من قول " نيكلسون" أنّه أخذ هذا التحديد بالسبق لابن قتيبة عن طريق قوله المعلن صراحة، ولم يحاول التنقيب في مظان الكتب الأدبية، وبهذا يمكننا القول إنّ :"الوسطية" عند ابن قتيبة جاءت في مرحلة لاحقة للأصمعي والجاحظ، فهو الآخر لم يحكم بالغلبة لأحد الطرفين على حساب الطرف الآخر، فكلّ عصر له سماته وخصائصه ولغته، فلا يمكن إلزام الشاعر بقالب شعري معيّن أو فرض لغة معيّنة أو نمط موسيقي

محدد، فأينما وجد الشاعر أسلوباً شعرياً جميلاً يتوجب الاحتذاء به، والسير على منواله؛ لذلك دعا الشعراء المحدثين الى ضرورة الأخذ من الأوائل والنهل من معينهم اللغوي، إذ قال: «فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر، ولم يطل فَيُمِلّ السامعين، ولم يقطع وبالنفوس ظمأ إلى المزيد»(٧١).

ابن قتيبة – هنا – لم يلزم الشاعر بالسير على منوال القديم بجميع أشكاله وصوره، إنّما سنَّ بعض النصائح للشاعر بأسلوب انماز بالاعتدال والوسطية بضرورة عدم الإطالة التي تبعث على سأم القارئ ومله، فضلاً عن إتمام الصورة الشعرية أو أنْ يجعل المتلقي متعطشاً إلى المزيد.قولنا هذا لا يعني أنّ ابن قتيبة شديد التزمت في أحكامه فهو من روّاد "الوسطية" في النقد العربي القديم، وقد أبان عن اعتداله بشكل واضح وجلي، ممّا حدا بـ"نيكلسون" على عدّه أول من دعا إلى "الوسطية" في النقد، فهو القائل: «فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره، ويرذل الشعر الرصين، ولا عيب له عنده إلا أنّه قيل في زمانه، أو أنّه رأى قائله، ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن، ولا خصّ به قوماً دون قومٍ ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر، وجعل كلّ قديم حديثاً في عصره، ..فكلّ من أتى بحسنٍ من قول أو فعل ذكرناه له، وأثنينا به عليه، ولم يضعه عندنا تأخر قائله أو فاعله، ولا حداثة سنه. كما أن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه».(٧٢)

فمَن ينعم النظر في قول ابن قتيبة يجد "الوسطية" تتخلل جميع فقراته، ويمكن إجماله بالآتي:

١. نبذ العصبية فإنّها تعمي القلوب والأبصار عن الجيد من الشعر فهي –أي العصبية– سبيل إلى سلب الشعر جماليته ورونقه.

٢. لم يعر ابن قتيبة بالاً لعامل الزمن، فالشاعر الذي يراه الناقد أو يعيش في عصره لا يكون مسوغاً للحكم بالجودة للمتقدّم وغمط حق المتأخر؛ لذلك أهمل ابن قتيبة عامل الزمن؛ لأنّ الله جلّ في علاه لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن.

٣. إهمال المكان، فالمكان سواء أكان في تميم أم ربيعة، أو عند الأسديين أو الخزرج لا يشكل شيئاً عند ابن قتيبة؛ لأنّ العلم والشعر والبلاغة لم يقصرها الله تعالى على قوم « بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كلّ دهر».

٤. القديم في نظره كان محدثاً في زمانه، والمحدث في زمنه سيؤول إلى القدم كلّما تقادم به الزمن.

٥. أغفل ابن قتيبة في أحكامه النقدية المكانة الاجتماعية والسياسية للقائل، فالجودة

هي المعيار والحكم، فيقول: «إن الرديء إذا ورد علينا للمتقدم أو الشريف لم يرفعه عندنا شرف صاحبه ولا تقدمه».

هذه هي المعايير التي سنّها ابن قتيبة في الحكم على النص الأدبي، وهي غاية في الاعتدال والوسطية، إلا أنّ هذا الكلام لم يرق لأستاذنا الدكتور محمد مندور (ت ١٩٦٥م) إذ قال: «هذه النظرة المجردة إنْ صحّت أمام العقل، فهي لا تصحّ أمام الواقع كما يبصرنا بهتاريخ الأدب العربي، وإنّما كانت تصحّ لو أنّ الشعر العربي استطاع أنْ يفلت من تأثير الشعر القديم»،[٧٣]لم يكتفِ مندور بهذا الردّ بلحاول أنْ يبرهن أفضلية الشعر القديم على المحدث عن طريق سرد حجج لا تستند إلى ثوابت وبراهين تدعم ما ذهب إليه قائلاً: «وفي تاريخ الأدب العربي –كما قلنا– ما يزيد من رجحان كفة قديم الشعر على حديثه، وهو صدور القديم عن طبع وحياة، وصدور أغلب الحديث عن تقليد وفن، ومن العجيب أنّ ابن قتيبة لم يفطن إلى هذه الحقيقة».[٧٤]

يتّضح من قول مندور أنّه لا يؤمن "بالوسطية" في النقد الأدبي، بمعنى آخر لا بدّ من ترجيح طرف على آخر، إذ لا يمكن أنْ تكون الكفّتان متوازنتين، فهناك ما هو أفضل، ولاسيما أنّ مندور اً قد عدّ من أنصار الجديد.[٧٥]

يقول الدكتور جابر عصفور في معرض تعليقه على نهج مندور من أنّ القراءة الإسقاطية على عملية تقييم الشعر، قد رفعت من شأن الطبع على حساب الصنعة.[٧٦] كذلك لم يسلم مندور من نقد الدكتور محمد زغلول سلام عندما قال: «ومعارضة مندور لابن قتيبة على ما يبدو فيها منطقية تنطوي على عيبين أساسيين:

أولهما: التعميم وهو قضية منهجية؛ لأنّه لا يدلّ على تقدير دقيق للموقف في الشعر العربي، فلا يصح في منهجلالعلم أنْ يقال إنّ الشعر القديم جملة جاهلياً وأموياً خير من الشعر الحديث جملة، أو من العباسي كله طوال الأربعة قرون التي عاشها الشعر العباسي.

أمّا العيب أو النقص الثاني: فهو إهماله ذكر أساس للتفضيل، على أي أساس يقوم حكمه من وجهة نظر الشعر باعتباره فنّاً إنسانياً عامّاً يعبر عن المشاعر الإنسانية ويصدق في التعبير عنها أم من وجه نظر اللغويين التقليديين الذين يرون الشعر رصانة وجزالة وأساليب سليمة من الانحرافات».[٧٧]

ما قاله الدكتور محمد زغلول مصيب؛ لأنّ مندور اً قد انطلق في آرائه من أحكام نقدية مسبقة، فضلاً عن ميله إلى القديم من دون الاحتكام إلى أدلّة تثبت فحوى أقواله، إنّما استند الى ركن هش بسبب اعتماده على التعميم، وهذا لا يجوز في نقدنا العربي، فهناك إثباتات وشواهد نقدية وشعرية تدلل أفضلية هذا على ذاك بغض النظر عن الزمان، إذ وسم الشعر

المحدث برمته بالصنعة ليبرهن ميله إلى المطبوع من الشعر، متناسياً القيم الجمالية التي ينطوي عليها الشعر المحدث والصور التي ابتدعها المحدثون، علماً أنّ أصولها قديمة إلا أنّهم ألبسوها حلّة انسجمت ومتطلبات العصر وثقافته فضلاً عن تناغمها ونفسية المتلقي؛ لأنّه ليس هناك قديم مطلق أو حديث مطلق؛ لأنّ الحديث يستمد معانيه وصوره من الماضي، فمَن لا ماضي له لا حاضر له، بدليل أنّ المبرّد (ت ٢٨٥هـ) وهو احد علماء اللغة البارزين لم يمنعه تزمت اللغويين من أنْ يبدي إعجابه بالشعر المحدث، فكتابه "الروضة" خير دليل على ذلك، كذلك أبدى ارتياحه من أشعار أبي نواس وأبي حفص البصري،[٧٨] فهو القائل: «ليس لقدم العهد يفضل القائل، ولا لحدثان عهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ما يستحق»،[٧٩] فقوله هذا يمثل "الوسطية" بحذافيرها، فهو لم يغمط حق القديم ولم يجنح نحو المحدث بحكم تخصصه اللغوي في عدم التسامح مع الشعراء في إفراطهم في البديع والجنوح باللغة عن غاياتها وصياغاتها وقواعدها.

والأمر نفسه عند ابن المعتز (ت ٢٩٦هـ) إذ عاش وتتلمذ على يد طائفة من اللغويين أمثال ثعلب،والمبرّد،والأحمد بن سعيد الدمشقي صاحب الفرّاء الكوفي، وأبي سعيد،[٨٠] إلا أنّ هذه الصلة لم تمنعه من أنْ ينصف الشعر الحسن وينظر (بوسطية) إلى الشعر العربي قديمه وحديثه، فكتابه (طبقات الشعراء) تلخيص للمسلمات الأساسية التي ابتدأها أبو عمرو بن العلاء (ت ١٥٩هـ) وانتهاءً بالأصمعي فقد وصف الاثنان شعر المحدثين (كلّ في عصره) وصفاً مطابقاً مؤدّاه أنّ المحدثين كَلّ على غيرهم إنْ اتوا حسناً فقد سبقوا إليه وإنْ قالوا قبيحاً فمن عندهم.[٨١] ونتيجة لذلك افتتح ابن المعتز كتابه قائلاً: «قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعض ما وجدنا في القرآن واللغة وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وكلام الصحابة والأعراب وغيرهم وأشعار المتقدمين من الكلام الذي سماه المحدثون البديع؛ ليعلم أنّ بشاراً ومسلماً وأبا نواس ومن تقيّلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن، ولكنّه كثر في أشعارهم فعرف في زمانهم حتى سمّيَ بهذا الاسم فأعرب عنه ودلّ عليه. ثم إنّ حبيب بن أوس الطائي من بعدهم شُغفَ به حتى غلب عليه، وتفرغ فيه وأكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف».[٨٢]

في هذا النص الذي أثبته ابن المعتز تتمثل "الوسطية" بشكل واضح ومعلن ويمكن إيجازه بالآتي:

١. دعوة إلى عدم الإفراط في البديع، مع أن ابن المعتز مولّد محدث، وقد أعجب المتأخرون بتشبيهاته حتى قيل: «الشعراء ثلاثة: جاهلي، وإسلامي، ومولد؛ فالجاهلي امرؤ القيس، والإسلامي ذو الرمة، والمولد ابن المعتز».[٨٣]

٢. إنّ البديع ليس من بنات أفكار المحدثين، إنّما سُبقوا إليه فقد ورد في القرآن الكريم وأحاديث الرسول (صلى الله عليه وسلم) وكلام الصحابة والأعراب وأشعار المتقدمين.

٣. محاولة منه دفع التهمة عن المحدثين، ليقول ابن المعتز إن البديع الذي حدثت حوله حركة نقدية واسعة غير معيب.

٤. تتمثل الوسطية في عدم استهجان شعر أبي تمام كلّه إنّما قال:إنه « أكثر منه، فأحسن في بعض ذلك وأساء في بعض، وتلك عقبى الإفراط وثمرة الإسراف».

وقد تنبّه الدكتور داود سلوم إلى أنّ ابن المعتز «قد أكّد حقيقة أخرى من حيث لا يشعر هي أنّ الشعر الحديث لم يخرج على أصول العربية وعمود الشعر في استعمال البديع».(٨٤)

وتتجلى الوسطية في حوار دار بين ابن المعتز وابراهيم بن المدبر (ت : ٢٧٨ هـ) قائلا " كان إبراهيم بن المدبر يتعصب على أبي تمام ويحطه عن رتبته ، فلا حاني فيه يوماً، فقلت له " أتقول هذا لمن يقول :

غدا الشَّيبُ مختطاً بفَودِيَّ خُطّةً ... سبيل الردى منها الى الموت
هو الزَّوْرُ يجفى والمعاشرُ يُجتوى ... وذو الإلْفِ يُقْلَى والجديدُ يُرَقَّعُ
لهُ منْظَرٌ في العَينِ أبيضُ ناصعٌ ... ولكنَّهُ في القلبِ أسودُ أسفعُ

ولمن يقول :

فإنْ تُرَمْ عن عُمرٍ تدانى به ... فخانَكَ حتّى لم يَجدْ فيكَ مَنْزِعا
فما كنتَ الاّ السَّيفَ لاقَى ... فقطَّعَها ثمَّ انثنى فتقطَّعا

ولمن يقول :

خَشَعُوا لصَولَتِكَ التي هي ... الموتِ يأتي ليسَ فيهِ عَارُ
فالمشيُ هَمْسٌ ،والنِّدَاءُ إشارةٌ ... خوفَ انتقامِكَ والحَديثُ سِرَارُ
أيّامُنَا مَصْقُولَةٌ أطرافُهَا ... بكَ والليَالي كُلُّهَا أسْحَارُ
تَنْدَى عُفَاتُكَ للعُفَاةِ وتغْتَدِي ... نا إلى زُوّارِكَ الزُّوَّارُ

قال "و أنشدته ايضا غير هذا ، فكأني – والله – ألقمته حجراً ". (٨٥)

فالمتأمل في قوله : " فكأني – والله – أَلْقَمْتُهُ حجراً " يفهم منه أنّ ابن المعتز قد احتكم

إلى المنهج الوسطي في موقفه، واضعاً نصب عينيه النضج الفني واحكام النسج ، فلم يخطر بباله وهو يختار أنموذجات شعرية لابي تمام زمن القائل وموقف النقاد المتعصبين عليه بل على العكس. فقد وقف موقفاً منصفاً له متحدياً النقاد الذين راموا الحطّ من قيمته والنيل من مكانته الشعرية. إذ انطلق في حكمه من كونه شاعراً خَبِرَ الألفاظ والمعاني، فانعكس ذلك على اتجاهه الفني واحكامه النقدية ، فضلاً عن تميزه بفن التشبيه الذي تجلى واضحا في اختياراته ، فكان موقفه من أبي تمام "موقف الأديب المتذوق لمواطن الابداع والجمال العارف أوجه الابتكار التي أُولِعَ بها أبو تمام ، ولكنه في الوقت نفسه عاش فترة كثرت فيها آراء النقاد المختلفين تجاه هذا الشاعر المجدد فتلمس أسباب الحملة التي شنت ضده فوجدها في إفراطه في البديع".(٨٦)

هذا لا يعني أن ابن المعتز لم ينكر بعضاً من أبيات أبي تمام ووسمها بالإساءة ، بدليل أنّه ألّفَ رسالة أسماها (محاسن أبي تمام ومساوئه) ، إنّما نظر بوسطية الى مجموع شعره ، فما كانه منه مبدعاً وسمه بالإجادة ، وما كان مسيئاً أشار اليه ونبه عليه كي يُعرف ويتجنب ، فلم يغلبه الهوى أو يسيّره التعصب الاعمى " فيحكم على الشاعر من خلال إساءات معينة يتبعها أو إحسان يبهره فيصمُّ أذنيه عن كل ما يخالفه "(٨٧) ؛ لأن ابن المعتز أدرك أنّ الابداع محفوف بالعثرات و العوائق ، فاذا ما أساء أبو تمام في موضع فإنه يبدع في موضع آخر ؛ لذلك لا يمكن أنْ نصف موقف ابن المعتز بالمتناقض، إنّما هو موقف اتَّسَمَ بالوسطية والانصاف. ومما يؤكد ذلك رده على ابن الاعرابي عندما قرأ أحدهم أرجوزةً لأبي تمام على أنَّها لبعض شعراء هذيل :

وعاذلٍ عذَلْتُهُ في عَذْلِهِ فظنَّ أنّي جاهلٌ مِنْ جَهْلِهِ

فقال : (اكتب لي هذه، فكتبتُها لهُ ، ثم قلت : أحسنة هي؟ قال: ما سمعت بأحسن منها ،قلتُ : إنها لأبي تمام. فقال خرِّقْ خرِّقْ ؟).(٨٨) فعندما وصل هذا الخبر مسامع ابن المعتز انتفض منددا رافضا هذه العصيبة قائلاً : (وهذا الفعل من العلماء مفرط القبح ؛ لأنّه يجب لأّ يدفعَ إحسان مُحسنٍ ،عدواً كان أو صديقاً ،وأنْ تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع ، فإنه يروى عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب (صلوات الله عليه) أنه قال: الحكمة ضالة المؤمن ، فخذ ضالتك ولو من أهل الشرك.ويروى عن يزر جمهر أنّه قال : أخذتُ من كل شيء أحسن ما فيه ،حتى انتهيتُ الى الكلب والهرة والخنزير والغراب..".(٨٩)

هذا القول يدلّنا على أنّ موقف ابن المعتز يعدُّ وسطيّاً معتدلاً ؛ لأنه في مواطن أخرى لم يرضَ عن إفراط أبي تمام، إذ اشار إلى محاسنه ومساوئه ، مما يدلّل على موضوعية ابن المعتز في أحكامه، وعدم الانسياق وراء المتعصبين، فقوله : " لأنه يجب لأّ يدفع إحسان

محسن ، عدواً كان أو صديقاً... " ، دعوة الى التروي في اصدار الاحكام النقدية، وتأمّل النتاج الابداعي بعيداً عن الاهواء والميول والرغبات الشخصية والاحكام الانطباعية ، إنّما يتوجب الأخذ بالحسبان القيمة الفنية التي ينطوي عليها الابداع. فهو القائل : "ومن عابَ مثلَ هذه الاشعار ، التي ترتاح لها القلوب ، وتجذل بها النفوس ، وتصغي اليها الأسماع ، وتشحذ بها الأذهان ، فإنّما غضّ من نفسه ، وطعن على معرفته واختياره ". (٩٠)

هذه الوسطية الماثلة في آراء ابن المعتز نابعة من نضج نقدي وتطور في النظرة تجاه النتاج الابداعي، إذ إنّ هذه النظرة المتجددة من لدن ابن المعتز اثارت انتباه الدكتور شوقي ضيف ، فعده مضطرباً في موقفه من أبي تمام فمرّة يرفعه الى الأفق الاعلى ، وتارة يحط من شأنه. (٩١)

تعد هذه النظرة تجاه أبي تمام " مرحلة مهمة في تاريخ النقد كان سببها أشعار أبي تمام نفسها انطلق فيها ابن المعتز من فكر موضوعي يدلُّ على قدرته على الإحاطة بنتاج الشاعر كاملاً، وذكر مساوئه ومحاسنه دون أن يأخذه التعصب إلى ظاهرة دون أخرى وإنْ بدا في بعض الاحيان منفعلاً في تعليقاته في بعض الشواهد السيئة". (٩٢)

هذا لا يعني أنّ ابن المعتز قد تسامح مع الشعر المحدث، أو وقف إلى جانبه، إنّما وقف بالمرصاد لكل هفواتهم ومبالغاتهم، إذ ألّف في محاسن شعر أبي تمّام ومساوئه، ضمّها موشح المرزباني،(٩٣) إذ استحسن بعضاً من شعر أبي تمام واستهجن بعضاً من استعاراته، من ذلك قوله:

تكادُ عطاياه يجنّ جُنونها إذا لم يعوّذْها بنغمةِ طالب(٩٤)

يعقب ابن المعتز قائلاً: «ولم يجن جنون عطاياه انتظاراً للطلب؟ يبتدئ بالجود فيستريح».(٩٥)ومما عابه عليه أيضاً قوله:

لم تسقَ بعدَ الهوى ماءً أقلّ من ماءِ قافيةٍ يَسْقِيكَهُ فَهِمُ(٩٦)

في ضوء ما تقدّم وَجَدَتْ الدكتورة ابتسام مرهون الصفار تصف ما قدّمه ابن المعتز من طروحات نقدية في كتابه "البديع" : « خطوة جديدة في قضية القديم والحديث من الشعر، فبعد أنْ وصل الشعر المحدث إلى مرحلة المطالبة بالمساواة مع القديم والدعوة إلى النظر بعين العدل والإنصاف عند الجاحظ وابن قتيبة خطا على يد ابن المعتز خطوة جديدة ...ليقول إنّ هذه الظاهرة ليست من ابتكار المحدثين وإنّما سبقهم إليها القدماء فلا داعي لتوجيه سهام النقد والعيب عليهم».(٩٧)

وفي معرض الدفاع عن أبي تمام الذي وصم بالإفراط والتعقيد المعنوي نجد الصولي (ت٣٣٥هـ)يتخذ من الوسطية في النقد سبيلاً للردّ على هؤلاء النقاد الذين وقفوا بالضدّ من

أبي تمام من مثل ابن الأعرابي[٩٨] ودعبل الخزاعي[٩٩] وأبي هفّان المخزومي،[١٠٠] ومحمد بن عبد الملك بن صالح،[١٠١] ومخلد بن بكّار الموصلي،[١٠٢] وإسحاق الموصلي،[١٠٣] وإبراهيم بن المدبر،[١٠٤] وأبي حاتم السجستاني،[١٠٥] وعبيد الله بن سليمان،[١٠٦] وابن مهرويه[١٠٧] إذ حاول الصولي في أخباره إبراز سبب هذه الهجمة على أبي تمّام؛ لأنّهم لم يجدوا مَن يشرح لهم المشكل من أبياته، فاستعصى عليهم فهم شعره، فضلاً عن عدم قدرتهم على إيجاد العلاقة الرابطة بين أطراف الصورة، قائلاً: «لأنّ أشعار الأوائل قد ذللت لهم، وكثرت لها روايتهم، ووجدوا أئمة قد ماشوها لهم وراضوا معانيها...ولم يجدوا في شعر المحدثين مذ عهد بشار أئمة كأئمتهم ولا رواة كرواتهم»[١٠٨].

على وفق هذه النظرة التوفيقية بين الشعر القديم والمحدث، نجد الصولي يضع مبررات لهذا القصور في فهم أشعار المحدثين؛ بسبب عدم ترويض الشرّاح أو الرواة لهذه القصائد وإيضاح تلك العلاقة كما فعل الرواة مع شعر الأوائل، هذا القول يمثل منهجاً وسطياً بين القديم والمحدث، وهذا ناجم عن إجلاله للجيد من القول حتّى إنَّه لم يذكر أسماء الرواة احتراماً لهم: «ولا أسمي منهم أحداً لصيانتي لأهل العلم جميعاً»[١٠٩].

وانطلاقاً من مبدأ "الوسطية" في النقد رفض الصولي ادّعاء المعاني الجديدة للمحدثين إنّما أخذوها من الأوائل، فأبدعوا فيها في قوله: «قلما أخذ أحد منهم معنى من متقدم إلا أجاده، وقد وجدنا في شعر هؤلاء معاني لم يتكلم القدماء بها، ومعاني أومؤُا إليها»[١١٠]، فهو لا ينكر حق المتقدم في إيجاد المعنى، إلا أنّه في الوقت نفسه، أشار إلى استعانة المحدثين بهم، ولكنه لا يعني أنّ قصائد المحدثين قد خلت من المعاني المولّدة المبتكرة. بمعنى آخر أنّ الصولي أراد القول إنّ المعاني قد تداولها الطرفان، فهناك معنى سابق وآخر لاحق، ولم ينكر الصولي أخذ لمحدثين معانيهم من الأوائل، إلا أنّ المحدثين أعادوا صياغتها وأحسنوا صورها فاستحقوا أنْ تنسب اليهم ، وكلامه المتقدم لا يمتُّ إلى العصبية بصلة، إنّما هو غاية في الاعتدال والوسطية، على الرغم من أنّ الصولي في موطن الحديث عن أبي تمام الذي احتلَّ ركناً أساسياً من أركان المحدثين.

يبدو أنّ الصولي قد أفاد من قول ابن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢هـ) عندما وضع الأمور في نصابها، ولم يجنح في رأيه تجاه طرف من أطراف الصراع، إنّما جعل "الوسطية" منهاجاً قاس فيه بين القديم و المحدث، بقوله : «وستعثر في أشعار المولدين بعجائب استفادوها ممن تقدمهم، ولطفوا في تناول أصولها منهم، ولبسوها على من بعدهم، وتكثروا بإبداعها فسلمت لهم عند ادعائها، للطيف سحرهم فيها، وزخرفتهم لمعانيها».[١١١]

وتتجلى "الوسطية" عند العلوي في عدم استهجانه لبيتي امرئ القيس على الرغم من الخلل الكامن فيهما، إلا أنّه يعزو هذا الخطل إلى الرواة، من ذلك قوله:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذات خَلْخَالِ

لَمْ أَسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ، ولَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً، بَعْدَ إِجْفَالِ

فيقول: «هكذا الرواية وهما بيتان حسنان، ولو وضع مصراع كل واحد منهما في موضع الآخر كان أشكل وأدخل في استواء النسج فكان يروي:

كَأَنِّي لَمْ أَرْكَبْ جَوَاداً ولَمْ أَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً، بَعْدَ إِجْفَالِ

وَلَمْ أَسْبَأ الزِّقَّ الرَّوِيَّ، لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كاعِباً ذات [112]

وتتمثل "الوسطية" أيضاً عند القاضي الجرجاني (ت ٣٩٢هـ) عندما وضع شعر المتقدمين والمحدثين في الميزان، فرأى أنّ ما ينعى على المحدثين من أخطاء لم يسلم القديم منها، في قوله: «ودونك هذه الدواوين الجاهلية والإسلامية، فانظر هل تجد فيها قصيدة تسلم من بيت أو أكثر لا يمكن لعائب القدْح فيه؛ إمّا في لفظه ونظمه، أو ترتيبه وتقسيمه، أو معناه، أو إعرابه؟ ولولا أنّ أهلَ الجاهلية جُدّوا بالتقدم، واعتقد الناس فيهم أنهم القدوة، والأعلام والحجة، لوجدتَ كثيراً من أشعارهم معيبة مسترذَلة، ومردودة منفية، لكن هذا الظنّ الجميل والاعتقاد الحسن ستر عليهم، ونفى الظِّنّة عنهم»[113] ونلمح "الوسطية" عند القاضي الجرجاني في قوله: «وقد كان بعض أصحابنا يجاريني أبياتاً أبعد أبو الطيب فيها الاستعارة، وخرج عن حد الاستعمال والعادة؛ فكان مما عدد منها قوله:

مسرّةٌ في قُلوب الطّيبِ مفرِقُها ... وحسرةٌ في قُلوبِ البَيض

وقوله:

تجمعتْ في فؤادِه همَمٌ ... ملء فؤاد الزمان إحداها[115]

فقال: جعل للطيب والبيض واليلَب قلوباً وللزمان فؤاداً. وهذه استعارة لم تجر على شبه قريب ولا بعيد؛ وإنما تصح الاستعارة وتحسن على وجه من المناسبة، وطرف من الشبه والمقاربة. فقلت له هذا ابن أحمر[116] يقول:

ولهت عليه كل مُعصفة ... هوجاء ليس للبّها زبْر

فما الفصل بين من جعل للريح لُبّاً، ومن جعل للطيب والبيض قلباً! وهذا أبو رميلة[117] يقول:

هم ساعدُ الدهر الذي يتقي به ... وما خير كف لا تنوء بساعدِ

وهذا الكميت يقول:

ولما رأيت الدهرَ يقلِبُ ظهره ... على بطنه فعل الممعّك

فقلت: فهؤلاء قد جعلوا الدهرَ شخصاً متكاملَ الأعضاء، تامّ الجوارح؛ فكيف أنكرت

على أبي الطيب أن جعلَ له فؤاداً»[١١٩]

هنا قاس القاضي الجرجاني إفراط المتنبي في الاستعارة باستعارات المتقدمين، محاولة منه دفع التهمة عن المتنبي والنظر بوسطية إلى الشاعر وعدم الاستهانة بشعره، هذه الممارسة النقدية للقاضي لا تمثّل تعصباً للمتنبي، بل هي دعوة إلى النقاد بضرورة التريث في إطلاق أحكامهم النقدية، وإنّما يكون الإنصاف رائدهم في ذلك.

وتتضح "الوسطية" أيضاً في نهج الخالديين[١٢٠] في عدم غضّ الطرف عن الشعر المحدث على الرغم من إعجابهما بالشاعر القديم والمخضرم، إذ عدّوهما بأنّهما «فتحا للمحدثين باب المعاني فدخلوه، وانهجوا لهم طرق الإبداع فسلكوه»[١٢١]، إلا أنّهما استدركا بوسطية واضحة ليبتعدا عن غمط حق المحدث فقالا: «فلسنا بقولنا هذا – أيدك الله– نطعن على المحدثين، ولا نبخسهم تجويدهم ولطف تدقيقهم وطريف معانيهم وإصابة تشبيههم وصحة استعاراتهم.إلاّ أنّا نعلم أن الأوائل من الشعراء رسموا رسوماً تبعها من بعدهم، وعوّل عليها مَن قفا أثرهم، وقلَّ شعرٌ من أشعارهم يخلو من معانٍ صحيحة، وألفاظ فصيحة، وتشبيهات مصيبة، واستعارات عجيبة»،[١٢٢] وآية ذلك أننا وجدناهما في معرض التطبيق يفضّلان أبياتاً لأبي نواس:

قـد قلـتُ للعبّـاسِ مُعْتَـذِراً ... مـن حمـل شُكـرِيهِ، ومعْترِفَـا

أنـت امْـرُؤ جلّلْتَنـي نِعَمـاً ... أوْهـتْ قـوَى شـكري فقـد ضَعُفا

فإليـكَ قبـل اليـومِ معـذرةً ... لقّـاكَ بالتّصْـريحِ منكشـفا

مع أنّهما يعترفان بأنّ أبا زبيد الطائي صاحب سبق إلى هذا المعنى عندما قال:

سـأَقْطَعُ مـا بَيْنِـي وبـينَ ابـنِ ... قَطِيعَـةَ وَصْـلٍ لسـت أقطـعُ جافِيـا

فَتـىً يُتْبِـعُ النُّعْمَـى تَرِبُهـا ... لا يُتْبِـعُ الإخْـوانَ بالـذّمِّ زارِيـا

وحجتهما: «لأنَّ أبيات أبي نواس جيدة الألفاظ صحيحة المعنى»،[١٢٣] كذلك أبديا إعجابهما بأبيات مسلم بن الوليد.[١٢٤]

هذه اللفتات النقدية تشير إلى اعتدالهما ووسطيتهما في التعامل مع النصوص الشعرية، سواء أكانت لشاعر متقدم أم متأخر؛ لذلك نرى الناقدين قد غابت عنهما العصبية، وحكما بما يمليه عليهما الذوق النقدي والقيم الجمالية التي تراءت لهما في النصوص الشعرية، فضلاً عن اعتمادهما على أحكام نقدية من إصابة التشبيه وصحّة الاستعارة، وهما ركنان أساسيان من أركان "عمود الشعر" كذلك أشارا إلى أنّ المحدثين لم يخرجوا عن مقررات عمود الشعر، إذ قالا: «قلَّ شعرٌ من أشعارهم يخلو من معانٍ صحيحة، وألفاظ فصيحة، وتشبيهات مصيبة، واستعارات عجيبة»،[١٢٥] وما كثر في شعرهم إنّما هو مجاراة لواقع

العصر حيث التطور والازدهار في ميادين الحياة كافة.

كذلك من ينعم النظر في "يتيمة" الثعالبي يجده يميل إلى البديع حتّى عدّه أسلوباً مبتكراً يستحق الإعجاب.(١٢٦) وتتضح هذه الرؤية في حديثه عن شعر أبي جعفر محمد بن موسى بن عمران، قائلاً: « وله شعر كعدد الشَّعر، غلب عليه التجنيس حتى كاد يذهب بهاؤه، ويكدر ماؤه وكلّ كثير عدو للطبيعة».(١٢٧)

هنا دعوة صريحة إلى الاعتدال في استعمال البديع، فالثعالبي غير منكر له، لكنه ينكر الإفراط فيه، كي لا يعاب الشاعر على ذلك كما عيب على أبي تمّام، بدليل أنّه أبدى إعجابه بالبديع الذي يرد طبيعياً من دون تكلف وإفراط، من ذلك قول أبي الطيب المتنبي:

أزورهم وسوادُ اللَّيل يشفع لي وأنثني وبياضُ الصُّبح يغري

يقول الثعالبي: «وما أحسن ما جمع فيه أربع مطابقات في بيت واحد، وما أراه سبق إلى مثلها، وما زال الناس يعجبون من جمع البحتري ثلاث مطابقات في قوله:

وأمّةً كانَ قُبْحُ الجَوْرِ يُسْخِطُهَا دَهْراً فأصْبَحَ حُسْنُ العَدْلِ رِضْيها»(١٢٩)

الخاتمة

بعد هذه الرحلة المتواضعة بين رواد النقد العربي القديم حتّى نهاية القرن الخامس الهجري، أخلص إلى القول إنّ "الوسطية" منهج نقدي ألفه النقاد العرب للتوفيق بين الآراء المتضاربة، والتخفيف من غلواء التعصب والجنوح بالنقد بعيداً عن المنهجية والموضوعية، ولكن بعد الاطلاع على المظان النقدية تمكنت من الوصول إلى نتيجة مؤداها أنّ ابن قتيبة لم يكن الرائدالاوّل إلى "الوسطية" في النقد، إذ اتضح لي أنّ الأصمعي والجاحظ هما السبّاقان إلى ذلك مستنداً إلى أدلّة وشواهد أثبتت ذلك.

كذلك أبان البحث عن وسطية في العلاقة بين الدين والشعر، إذ إنّ طائفة من النقّاد لم يتخذوا الدين معياراً في الحكم على الشعر بالجودة أو الرداءة، إنّما قد حدّدوا موقفاً صريحاً من الشعر الذي يخدش الحياء أو يمس العقيدة الإسلامية بسوء.

أشار البحث إلى طائفتي الصراع بين القديم والمحدث، وقد أماط اللثام عن هؤلاء المتعصبين الذين فضّلوا القديم على المحدث، إلا أنّهم في موطن التطبيق لم يتحرجوا من الاستشهاد بالشعر المحدث وتفضيل بعضه على الشعر المتقدم آخذين بالحسبان القيمة الجمالية التي ينطوي عليها النص الشعري ، بغض النظر عن زمان القائل ومكانه أو لونه ودينه.

هوامش البحث

(١) صفوة التفاسير : ٢ / ٨٢١
(٢) رواه ابن ماجة في سننه كتاب المناسك (باب قدر حصى الرمي) : ٢ / ١٠٠٨ رقم ٣٠٢٩.
(٣) تفسير ابن كثير : ٢ / ٥٨٤.
(٤) ينظر لسان العرب : مادة (وسط) .
(٥) تفسير المنار : ٢ / ٤.
(٦) سمي بابي نخيلة ، لأن أمه ولدته الى جنب نخلة ، وهو من بني جمان بن كعب بن سعد ، كان يهاجي الحجاج. ينظر الشعر والشعراء : ٣٩٩.
(٧) ينظر البيت في البيان والتبيين : ٣ / ٢٢٥.
(٨) معجم النقد العربي القديم ، د. احمد مطلوب : ٢ / ٤٣٩
(٩) نفسه : ٢ / ٤٣٩.
(١٠) ينظر: الشعر والشعراء: ٧٣-٧٤.
(١١) ينظر: الموشّح: ٤٥٢.
(١٢) ينظر: نفسه: ٤٥٢.
(١٣) ينظر: نفسه: ٣٧٧.
(١٤) ينظر: نفسه: ٣٣٢، ٤٧٤.
(١٥) ينظر: نفسه: ٣٧٧، أخبار أبي تمام: ٢٤٤.
(١٦) ينظر: نفسه: ٣٥٣.
(١٧) لم يصل الينا هذا الكتاب، وقد أشار إليه صاحب الفهرست : ٦٥، وابن الأثير في المثل السائر: ١٢/٢.
(١٨) العمدة: ٢٦٦/٢.
(١٩) ينظر: معجم الأدباء: ٣١٦/١.
(٢٠) نفسه: ٢٧٤/٦.
(٢١) ينظر: الواضح: ٢٧-٢٨.
(٢٢) ينظر: يتيمة الدهر : ١٢٦/١ وما بعدها.
(٢٣) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٢٢٨.
(٢٤) العمدة: ٢١٤/١.
(٢٥) الشعر والشعراء: ٦٣.
(٢٦) مسند الإمام أحمد: ٢/ ٥٩١.
(٢٧) جمهرة أشعار العرب : ٣٤ ، العمدة : ١ / ٢٨ ، زهر الأكم : ١ / ٤٤ .
(٢٨) ينظر: الشعر والشعراء: ٢٠٥.
(٢٩) هو قيس بن عمرو بن مالك ، كان فاسقاً رقيق الإسلام ، الشعر والشعراء : ٢٠٤
(٣٠) نفسه: ٢٠٥.
(٣١) نفسه: ٢٠٥، والكك: الزحام ، ينظر لسان العرب ، مادة (لكك) .
(٣٢) نفسه: ٢٠٥.
(٣٣) نفسه: ٢٠٥.
(٣٤) نفسه: ٢٠٥.
(٣٥) الأغاني: ٥٢٠/١٦.
(٣٦) مقالات في تاريخ النقد: ٤٤.
(٣٧) نفسه: ٤٤.
(٣٨) الموشح : ٨٤
(٣٩) لسن القد عند العرب : ٣٩٧
(٤٠) الأصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي : ٤٤٤
(٤١) أمالي المرتضى : ١ / ٢٦٩ ، والموشح ٧١.
(٤٢) ينظر: الموازنة: ١٧٦، وديوان أبي تمام (الصولي): ٢٩٧/٢-٢٩٨.
(٤٣) أخبار أبي تمام: ١٧٢-١٧٤.
(٤٤) تاريخ النقد الأدبي: ١٧٠، والحديث في صحيح مسلم: ١٥/٨-١٦ ونصه: (لا تسبّوا الدهر فإنّ هو الدهر).
(٤٥) الوساطة: ٦٤.

(٤٦) ينظر : القاضي الجرجاني الأديب الناقد: ١٦٠-١٦١.
(٤٧) الأسس الجمالية في النقد العربي: ١٨٤.
(٤٨) يتيمة الدهر: ١٨٤/١.
(٤٩) الثعالبي ناقداً وأديباً: ٢٧٩-٢٨٠.
(٥٠) ينظر: اليتيمة: ٣/٢.
(٥١) ينظر: المصدر نفسه: ٣٥١/١.
(٥٢) ينظر: نفسه: ٢٢/٣.
(٥٣) نفسه:٢١/٣-٢٢.
(٥٤) نفسه: ٢١٨/٢.
(٥٥) نفسه: ٢١٣/٢.
(٥٦) نفسه: ٣٥/٣.
(٥٧) الأغاني: ٤٢٣/٨.
(٥٨) طبقات فحول الشعراء: ٢/ ٤٩٣ ، والأغاني: ٤٢٣/٨ ، وديوان الأخطل: ٢٥٧.
(٥٩) الثعالبي ناقداً أديباً: ٢٨٤.
(٦٠) رسالة الغفران: ٤١١.
(٦١) الموشح : ٣٣٦، وصدر البيت : (دع عنك لومي فإنّ اللومَ إغراءُ) شرح ديوان أبي نواس : ٢٢ ، ديوان الاعشى ١٧٣
(٦٢) الوساطة: ٥٠. والبيتان في ديوان إسحاق الموصلي: ١٦٦.

هـــل إلـــى نظـــرةٍ إليـــكِ ســـبيلُ يُـــرْوَ منهـــا الصَّـــدَى ويُشْـــفَى الغليـــل
إنْ مـــا قـــلّ منـــك يكثـــر عنـــدي وكثيـــرٌ ممـــن تحـــبّ القليـــلُ

(٦٣) ينظر: تاريخ الأدب العباسي، نيكلسون: ٥٩.
(٦٤) الأغاني: ٩٩/٣
(٦٥) المصون في الأدب: ١٧٣-١٧٤.
(٦٦) الموشح: ٢٣٤.
(٦٧) الأغاني: ٥١٢/٤، وخزانة الأدب : ٤٢٥/١، وشرح شواهد المغني: ٦٨٢.
(٦٨) الحيوان: ١٢٩/٣.
(٦٩) نفسه: ٢٧/٢.
(٧٠) تاريخ الأدب العباسي، نيكلسون: ٥٩.
(٧١) الشعر والشعراء: ٧٥-٧٦.
(٧٢) نفسه: ٦٢-٦٣.
(٧٣) النقد المنهجي عند العرب: ٢٤.
(٧٤) نفسه: ٢٤-٢٥.
(٧٥) ينظر: الصراع بين القديم والجديد: الأعرجي: ٦٧.
(٧٦) ينظر:قراءة التراث القدي، د. جابر عصفور: ٤٠.
(٧٧) تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام: ١١٣-١١٤.
(٧٨) ينظر:طبقات الشعراء: ابن المعتز: ٩٧- ٢١٧.
(٧٩) الكامل في اللغة والأدب: ٢٩/١.
(٨٠) ينظر: الفهرست: ٦٤.
(٨١) الرسالة الموضحة: ١٤٣.
(٨٢) البديع: ١.
(٨٣) العمدة: ١/ ١٠٠.
(٨٤) ينظر: مقالات في تاريخ النقد: ١٧٣.
(٨٥) من فصول ابن المعتز ورسائله. ٢٢٦ – ٢٢٧. وأخبار ابي تمام : ٩٩ ، ديوان أبي تمام:٩/٢، وفيه (الهمّ)، و(طريق)، وينظر: الديوان: ١/ ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٨.
(٨٦) محاضرات في تاريخ النقد. ابتسام ، وحلاوي : ١٧٠
(٨٧) نفسه : ١٦٧

(٨٨) من فصول ابن المعتز ورسائله : ٢٣٨ ، وأخبار أبي تمام : ١٧٥ – ١٧٦.
(٨٩) نفسه : ٢٣٨.
(٩٠) نفسه : ٢٣٨ – ٢٣٩ ، وأخبار أبي تمام ١٧٦ – ١٧٧.
(٩١) الفن ومذاهبه في الشعر : د. شوقي ضيف : ٢٦٦.
(٩٢) محاضرات في تاريخ النقد : ١٦٨.
(٩٣) ينظر: الموشح: ٣٨١.
(٩٤) نفسه : ٣٨١، وديوان أبي تمام: ٢٨١/١.
(٩٥) الموازنة:: ٢٤٢.
(٩٦) نفسه :٢٤٢.
(٩٧)محاضرات في تاريخ النقد: ١٥٢.
(٩٨) ينظر: أخبار أبي تمام: ١٧٥، ١٧٦،٢٤٤.
(٩٩) نفسه: ٢٤٤.
(١٠٠) نفسه: ٢٤٥.
(١٠١) نفسه: ٢٤٨.
(١٠٢) نفسه: ٢٤٠-٢٤١.
(١٠٣) نفسه: ٢٢١.
(١٠٤) نفسه: ٩٧.
(١٠٥) نفسه: ٢٤٤.
(١٠٦) ينظر: الموشح: ٣٧٨.
(١٠٧) الأغاني: ٢٥٤/١٣.
(١٠٨) أخبار أبي تمام: ١٤.
(١٠٩) نفسه: ١٤.
(١١٠) نفسه: ١٧.
(١١١) عيار الشعر: ٨.
(١١٢) نفسه: ١٧، ديوان امرئ القيس: ٣٥.
(١١٣) الوساطة: ٤.
(١١٤) ديوان المتنبي : ١ / ١٧٦.
(١١٥) ديوان المتنبي : ٢/ ٥٧٤.
(١١٦) هو عمرو بن أحمر بن مراض بن معن، شاعر إسلامي، يكنى أبا الخطاب، ينظر: الشعر والشعراء: ٢٢٣.
(١١٧) هو الأشهب بن رميلة، شاعر مخضرم، أسلم ولم تعرف له صحبة، ينظر: الإصابة: ١٠٧/١.
(١١٨) شعر الكميت : ٦٤
(١١٩) الوساطة: ٤٢٩-٤٣٠.
(١٢٠) هما أبو بكر محمد (٣٨٠هـ) وأبو عثمان سعيد (ت ٣٩٠هـ)، ولدا في مدينة الموصل، وقد ناصبا العداء للسَّرّي الرفّاء، وغصبا بعضاً من شعره والدس عليه، ينظر: الفهرست: ٢٤٦-٢٤٧، واللباب: ٣٣٩/١.
(١٢١) الأشباه والنظائر: ١/١.
(١٢٢) نفسه: ٢/١.
(١٢٣) نفسه: ١٨٢/١-١٨٣، وشرح ديوان أبي نواس: ٣٤٧.
(١٢٤) نفسه: ١٨٤.
(١٢٥) نفسه: ٢/١.
(١٢٦) ينظر: يتيمة الدهر: ٣٤٠/٤، وتتمة اليتيمة: ٦١/٣.
(١٢٧) يتيمة الدهر: ١٥١/٤.
(١٢٨) نفسه: ١٥٣/١-١٥٤، ديوان المتنبي: ٢٢٤/١.
(١٢٩) نفسه: ١٥٣/١-١٥٤، ديوان البحتري: ٢/ ٣٦٩.

مصادر البحث ومراجعه

١. أخبار أبي تمّام، أبو بكر الصولي (ت ٣٣٥هـ)، تحقيق خليل محمود عساكر وآخرين، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، (د.ت).
٢. الأسس الجمالية في النقد العربي، د. عز الدين إسماعيل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦م.
٣. أسس النقد الأدبي عند العرب، د. أحمد أحمد بدوي، نهضة مصر، ١٩٦٠ ، ط ٢.
٤. الأشباه والنظائر من أشعار المتقدمين والجاهلين والمخضرمين، الخالديان، أبو بكر محمد (ت ٣٨٠هـ)، وأبو عثمان سعيد (ت٣٩٠هـ)، تحقيق : السيد محمد يوسف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٥٨م.
٥. الإصابة في تمييز الصحابة، ابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ)، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، ١٣٤٥هـ.
٦. الاصمعي وجهوده في رواية الشعر العربي ، د. إياد عبد المجيد ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ١٩٨٩ ، ط ١.
٧. الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦هـ)، مكتب تحقيق دار إحياء التراث العربي، بيروت . لبنان.
٨. أمالي المرتضى ، الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار الكتاب العربي ،بيروت ، ١٩٦٧.
٩. البديع: ابن المعتز (ت٢٩٦هـ)، اعتنى بنشره كراتشقوفسكي، لندن، ١٩٣٥م.
١٠. البيان والتبيين ، الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) ، تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون ، بيروت ، ط٤.
١١. تاريخ الأدب العباسي: نيكلسون، ترجمة د. صفاء خلوصي، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٦٧م.
١٢. تاريخ النقد الأدبي عند العرب: د. إحسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، ١٩٨٦م.
١٣. تاريخ النقد العربي إلى القرن الرابع الهجري، د. محمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ١٩٦٤م.
١٤. تتمة اليتيمة: الثعالبي (ت٤٢٩هـ)، تحقيق عباس إقبال، مطبعة فردين، طهران، ١٣٥٣هـ.
١٥. تفسير القران العظيم ، ابن كثير الدمشقي (ت ٧٧٤ هـ) ، تحقيق : د. عبد الرزاق المهدي ، دار الكتاب العربي ، ٢٠٠٢ ، ط٢.

١٦. تفسير المنار ، الشيخ محمد رشيد رضا ، مكتبة القاهرة (د. ت).
١٧. الثعالبي ناقداً وأديباً: د. محمود عبد الله الجادر، بغداد، ١٩٧٦م.
١٨. جمهرة أشعار العرب : أبو زيد القرشي (ت ١٧٠هـ) ، تحقيق : علي محمد البجاوي، نهضة مصر ، القاهرة ، د . ت .
١٩. الحيوان: الجاحظ (ت ٢٥٥هـ)، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت، (د.ت).
٢٠. خِزانة الأدب ولُبُّ لُبَاب لسان العرب، عبد القادر بن محمد البغدادي (ت١٠٩٣ هـ)، ت: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٨٩م، ط٣.
٢١. ديوان أبي تمام بشرح الصولي ، تحقيق : د. خلف رشيد نعمان ، منشورات وزارة الثقافة والفنون ، بغداد ، سلسلة كتب التراث (٥٥).
٢٢. ديوان أبي الطيب المتنبي، شرح البرقوقي، تحقيق: عمر فاروق الطبّاع، دار الأرقم بيروت، د.ت.
٢٣. ديوان أبي نواس ، شرحه وضبطه علي فاعور ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٧ ، ط١.
٢٤. ديوان الاخطل ، شرحه وقدم له مهدي محمد ناصر الدين ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ط١.
٢٥. ديوان إسحاق الموصلي ، دراسة وتحقيق ماجد أحمد العزي ، مطبعة اليمان ، بغداد ، ١٩٧٠ ، ط١.
٢٦. ديوان الاعشى الكبير ، شرح وتعليق د. محمد حسين ، المطبعة النموذجية ، القاهرة ، (د. ت).
٢٧. ديوان امرئ القيس تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٨٤.
٢٨. ديوان البحتري ، شرحه وضبطه وقدّم له إيمان البقاعي، مؤسسة النور، بيروت، ٢٠٠١، ط١.
٢٩. رسالة الغفران: أبو العلاء المعري (ت ٤٤٩هـ)، تحقيق: الدكتورة عائشة عبد الرحمن، دار المعارف، مصر، ١٩٦٩م، ط٥.
٣٠. الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتنبي وساقط شعره: أبو علي محمد بن الحسن الحاتمي(ت ٣٨٨هـ)، تحقيق : د.محمد يوسف نجم، دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٦٥م.

٣١. زهر الأكم في الأمثال والحكم : الحسن بن مسعود اليوسي (ت ١١٠٢هـ) تحقيق : د . محمد حجي ، د . محمد الأخضر ، دار الثقافة ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨١م ، ط١ .

٣٢. سنن ابن ماجه ،أبو عبد الله محمد بن يز يد القزويني (ت ٢٧٥ هـ) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، دار الفكر ، بيروت (د. ت).

٣٣. شرح ديوان أبي نواس، شرح وتحقيق: مجيد طراد، دار الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠٣م، ط١.

٣٤. شرح شواهد المغني: السيوطي، (ت ٩١١هـ)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٦م.

٣٥. شعر الكميت الأسدي ، جمع وتقديم د. داود سلوم ، نشر مكتبة الأندلس ، مطبعة النعمان ، النجف الأشرف ، ١٩٦٩ م ،

٣٦. الشعر والشعراء، ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ)، تحقيق د. مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٥م، ط٢.

٣٧. صحيح مسلم بشرح النووي، دار إحياء التراث العربي بيروت، (د.ت).

٣٨. الصراع بين القديم والجديد في الشعر العربي: د. محمد حسين الأعرجي، دار الحرية، بغداد، ١٩٧٨م.

٣٩. صفوة التفاسير ، الشيخ محمد علي الصابوني ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ٢٠٠٨ م.

٤٠. طبقات الشعراء: ابن المعتز، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، دار المعارف، مصر، ١٩٦٨م.

٤١. طبقات فحول الشعراء: ابن سلام (ت ٢٣٢هـ) تحقيق: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة.

٤٢. العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني (ت ٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ١٩٧٢م، ط ٤.

٤٣. عيار الشعر: محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي (ت ٣٢٢ هـ)، تحقيق: د. طه الحاجري ، والدكتور محمد زغلول سلام، المكتبة التجارية، مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

٤٤. الفن ومذاهبه في الشعر العربي ، د. شوقي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٨م ، ط١١.

٤٥. الفهرست:ابن النديم محمد بن إسحاق بن أبي يعقوب المعروف بالورّاق (ت ٣٨٥هـ)، تحقيق: رضا تجدد، طهران، ط١، ١٩٧١م.

٤٦. القاضي الجرجاني الأديب الناقد: د. محمود السمرة، بيروت، ١٩٦٦م.

٤٧. قراءة التراث النقدي: د. جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ١٩٩٢م، ط١.

٤٨. الكامل في اللغة والأدب: أبو العباس المبرد (ت ٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، والسيد شحاته، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٥٦م.

٤٩. اللباب في تهذيب الأنساب: عز الدين بن الأثير (ت ٦٣٠هـ) مطبعة السعادة، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

٥٠. لسان العرب ، ابن منظور المصري (ت ٧١١ هـ) ، دار صادر ، بيروت (د. ت)

٥١. محاضرات في تاريخ النقد عند العرب: د. ابتسام مرهون الصفار، و د. ناصر حلاوي، مطبعة دار الحكمة، بغداد، ١٩٩٠م.

٥٢. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الاثير (ت ٦٣٧هـ)، حققه وقدمه : د. أحمد الحوفي ، و د. بدوي طبانة، منشورات دار الرفاعي بالرياض، ١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م، ط٢.

٥٣. مسند الإمام أحمد: أحمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ)مؤسسة قرطبة، مصر.

٥٤. المصون في الأدب: أبو أحمد العسكري (ت ٣٨٢هـ) تحقيق عبد السلام محمد هارون، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤، ط٢.

٥٥. معجم الأدباء، ياقوت الحموي (ت ٦٢٦هـ)، تحقيق مرجليوث، مطبعة أمين هندية، القاهرة.

٥٦. معجم النقد العربي القديم: د. أحمد مطلوب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٨٩م، ط١.

٥٧. مقالات في تاريخ النقد العربي: داود سلوم (ت٢٠١٠م) دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١.

٥٨. من فصول ابن المعتز ورسائله ، جمع وتحقيق د. يونس أحمد السامرائي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٢ م.

٥٩. الموازنة بين أبي تمام والبحتري، الآمدي (ت ٣٧٠هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٩٥٩م، ط٣.

٦٠. الموشح مآخذ العلماء على الشعراء في عدة أنواع من صناعة الشعر: لأبي عبيد الله محمد بن عمران موسى المرزباني (٣٨٤هـ) تحقيق: علي محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة، د.ت.
٦١. النقد المنهجي عند العرب: د. محمد مندور (ت١٩٦٥م)، دار نهضة مصر، القاهرة، ١٩٦٩م.
٦٢. الواضح في مشكلات شعر المتنبي: أبو القاسم الأصفهاني، تحقيق: محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية، ١٩٦٨م.
٦٣. الوساطة بين المتنبي وخصومه: القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني (ت ٣٩٢هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي وشركائه القاهرة ، د.ت..
٦٤. يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: لأبي منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ)، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ١٣٧٥هـ.